المحاضرة 11: البعد النقدي للشروح

تمهيد:

كان جهد العلماء في القرون الأولى الهجرية منصبًا على جمع الشعر وتدوينه وذلك لفهم النصوص القرآنية انطلاقًا من: "إذا أعياكم تفسير آية من كتاب الله فاطلبوه في الشعر فإنّه ديوان العرب" ثم كان للاستشهاد به على مسائل النحو وتدوين اللغة في معاجم، أمّا تفسير الشعر ونقده فقد جاء متأخرًا، فما أسباب ظهور الشروح الشعرية ؟ وكيف نشأت هذه الشروح ؟.

1-**أسباب ظهور الشروح الشعرية:** يمكن أن نوجزها في ما يلي:

1-1-الأسباب الدينية: كان اهتمام العلماء بالقرآن الكريم ودراسته وشرحه وتفسيره اهتمامًا بليغًا لذلك اعتمدوا على فهم النصوص القرآنية بالشعر وشرحه فقد كان ابن عباس يقول: "إذا أعياكم تفسير آية من كتاب الله ، فاطلبوه في الشعر فإنّه ديوان العرب"[1].

2-1-اختلاط العرب بالعجم: كان لاختلاط العرب بغيرهم من الأعاجم سببًا في شرح الشعر لفهم الشعر العربي.

3-1-المجالس العلمية والنوادي الأدبية: كان للمجالس العلمية في قصور الخلفاء دورًا كبيرًا في ظهور الشروح الشعرية كما أنّ هذه المجالس لم تكن مقصورة على قصور الخلفاء والأمراء ،بل كانت نوادٍ خاصة ومجالس للشعراء يتطارحون فيها إنتاجهم فيشرحون ويفسرون ما استعصى من معانيه.

2- نشأة الشروح وتطورها: لم يحتج العرب في جاهليتهم شرح الشعر وتفسيره ، لأنّه كان يدرك بفطرته وسليقته معاني الشعراء كما كان يدرك بواعث الشعر وأغراضه إلّا في الحالات النادرة فإنّه يقصد الشاعر ليبين المقصود من تلك اللفظة أو العبارة الغامضة مثلما حدث لعبيدة راوية الأعشى يقف حائرًا أمام قوله "سلبتها جِريالها" في قوله:

---

[1] - منهج أبي علي المرزوقي في شرح الشعر الطاهر حمروني ص46.

ومُدَامَةٍ مما تُتَّق بابلٌ كَدَمِ الذبيح سلبتها جريالها

فقال له: "شربتها حمراء وبُلتُها بيضاء"

والجريال: اللون[2].

وغير هذا من الأمثلة التي تحفل بها كتب الأدب واللغة في تراثنا العربي .**ففي القرن الأول الهجري** كان شرح الشعر لا يعدو شرح لفظة أو توضيح علم أو بيان خبر أثناء رواية الشعر ولذلك لم يخرج الشرح في هذا القرن عن دائرة الجزئية أو الاستشهاد بها في مسائل النحو أو اللغة .

أمّا في **القرن الثاني الهجري** لم يبتعد العلماء والرواة عما كان عليه الشرح والشعر في القرن الأول إلّا ما نجده من التوسع في بعض القضايا اللغوية والأخبار مع بعض اللمحات التي تفصح عن مقصد الشاعر ، أو تشير إلى بعض العيوب المتصلة بشعره من حيث الألفاظ أو المعاني[3].

ويتصدر هؤلاء الرواة أبو عمرو بن العلاء (154هـ) الذي عُني بجمع أشعار العرب مع بعض الايضاح والتفسير وعلى نهجه سار حمَّاد الراوية (155هـ) ،والمفضل الضبي (168هـ)، وأبو الخطاب الأخفش (177هـ)، وخلف الاحمر (180هـ) ، ويونس بن حبيب (182هـ) وغيرهم الذين كانوا يردفون ما يرونه ويدوِّنونه من أشعار العرب بلمحات تتمثل في تفسير لغريب أو شرح لمعنى أو ذكر لخبر أو نسب أو نقد محدود، وكان منهجهم في الشرح هو الإتيان بمجموعة من الأبيات ثم التعليق عليها ومن المرجح أن أبا الخطاب الأخفش الأكبر هو أوّل من سار على نهج شرح كل بيت تحته يقول السيوطي: "وأبو الخطاب المذكور أوّل من فسَّر الشعر تحت كل بيت وما كان الناس يعرفون ذلك قبله، وإنّما كانوا إذا فرغوا من القصيدة فسروها"[4] غير أن شروح علماء

---

[2] – الشعر والشعراء 260/1.

[3] – مصادر الشعر الجاهلي ناصر الدين الأسد ص 252.

[4] – المزهر في علوم اللغة وأنواعها ص747.

هذا الجيل ورواته لم تصل إلينا على هيئة شروح الدواوين وإنَّما جاءت متناثرة في مصادر الأدب وفي الشروح التي صنفها تلاميذ هم مع شيء من الاجتهاد الشخصي والتوسع في الشرح والنقد وحسن الفهم لمراد الشعراء ومن هؤلاء أبي عبيدة (210هـ) ، والأصمعي (216هـ) ، وابن الأعرابي (231هـ)، وأبي عمرو الشيباني (231هـ) ، وكلهم رواة شعر ورواة لغة وأخبار وأنساب وأهم ما يميز شروحهم العناية باللغة أكثر من الشرح الأدبي .

وفي **أواخر القرن الثالث** نجد نشاطًا دائبًا في حركة شروح الشعر تتسم بالتوسع في الشرح ومحاولة التتبع والجمع لآراء السابقين والحرص على ايضاح المشكل وتعليله وتفسير الغامض مع شيء من حسن العرض والتأليف ويعد أبو سعيد الحسن السكري (275هـ) ،وأبو العباس ثعلب (291هـ) ،وابن قتيبة (276هـ) ، والمبرد (285هـ) ، من أبرز علماء القرن الثالث الهجري الذين جمعو بين رواية الشعر وشرحه.

ومن أمثلة الشرح ما ذكره أبو سعيد السكري في شرح لديوان جران العود النميري قوله:

حملن جران العوج حتى وضعنه بعلياء في أرحائها الجن تعزف

قال السكري: علياء مكان مرتفع من الأرض وإنَّما قال علياء لأنَّه بناها من "عليت" كما قال الشاعر:

لما علا كعبك لي عَلَيْتُ

أي وضعه موضعًا لا يوصل إليه ،وقال الاعرابي: العزف والعزيف صوت الجن، وقال الأصمعي: وإنَّما هو من الريح على الرمل فسمع له صوتًا والجن لا تعزف ولكن الأعراب قالوه بجهلهم[5].

أمَّا **في القرن الرابع للهجرة** عرف حركة نشطة في الشروح الشعرية ساهم فيها التعدد الثقافي المتنوع ، فلم تقف الشروح عند الجانب اللغوي والتفسير النحوي، بل

[5] – شرح ديوان جران العود النميري ص19.

تعدتها إلى الاهتمام بعرض الروايات المختلفة وقضايا النقد والبلاغة تكشف أسلوب أدبي راقٍ وأشهر شراح هذا العصر أبو بكر بن القاسم الأنباري (328هـ) الذي اهتم بشرح المعلقات ، وأبو بكر الصولي (335هـ) شرح ديوان أبي تمام ، والآمدي (370هـ) صاحب الموازنة، والمرزباني (384هـ) صاحب الموشح، وابن جني (392هـ) صاحب شرح ديوان المتنبي[6].

أمَّا **في القرن الخامس** عرف وثبات واسعة في شرح الشعر فقد أخذ الشرَّاح في استكمال ما قصر السابقون فيه وظهر الاهتمام بالمعاني مع النقد والتحليل والتعليل كما اعتمد في شروحهم أيضا اللغو والنحو والبلاغة والإخبار التاريخية وأبرز شرَّاح هذا القرن المرزوقي (421هـ) في شرح ديوان الحماسة ، والمعري (499هـ) ، والبطليوسي (564هـ) شرح سقط الزند ، والأعلم الشنتمري (476هـ) شرح ديوان طرفة، والحقيقة أن هذا القرن هو أزهى العصور للشروح الشعرية لاعتمادها المنهجية والجوانب الفنية في الشرح.

أمَّا القرن السادس فقد تميزت الشروح إلى الاتساع والشمول بتجميع مادة الشعر من شروح السابقين مع تهذيبها واختيار ما هو مناسب منها وأبرز الشرَّاح هذا القرن الخطيب التبريزي (503هـ) الذي شرح المفضليات وحماسة أبي تمام وديوان العرب.

أمَّا **بعد القرن السادس** فتكاد تكون الشروح بنفس المنهجية والطريقة المعتمدة في الشرح وإن كان أحيانًا يطغى عليها الجانب العقلي مثل شرح ابن هشام الأنصاري (761هـ) لقصيدة "بانت سعاد".

---

[6] – حماسة أبي تمام وشروحها ص60.